

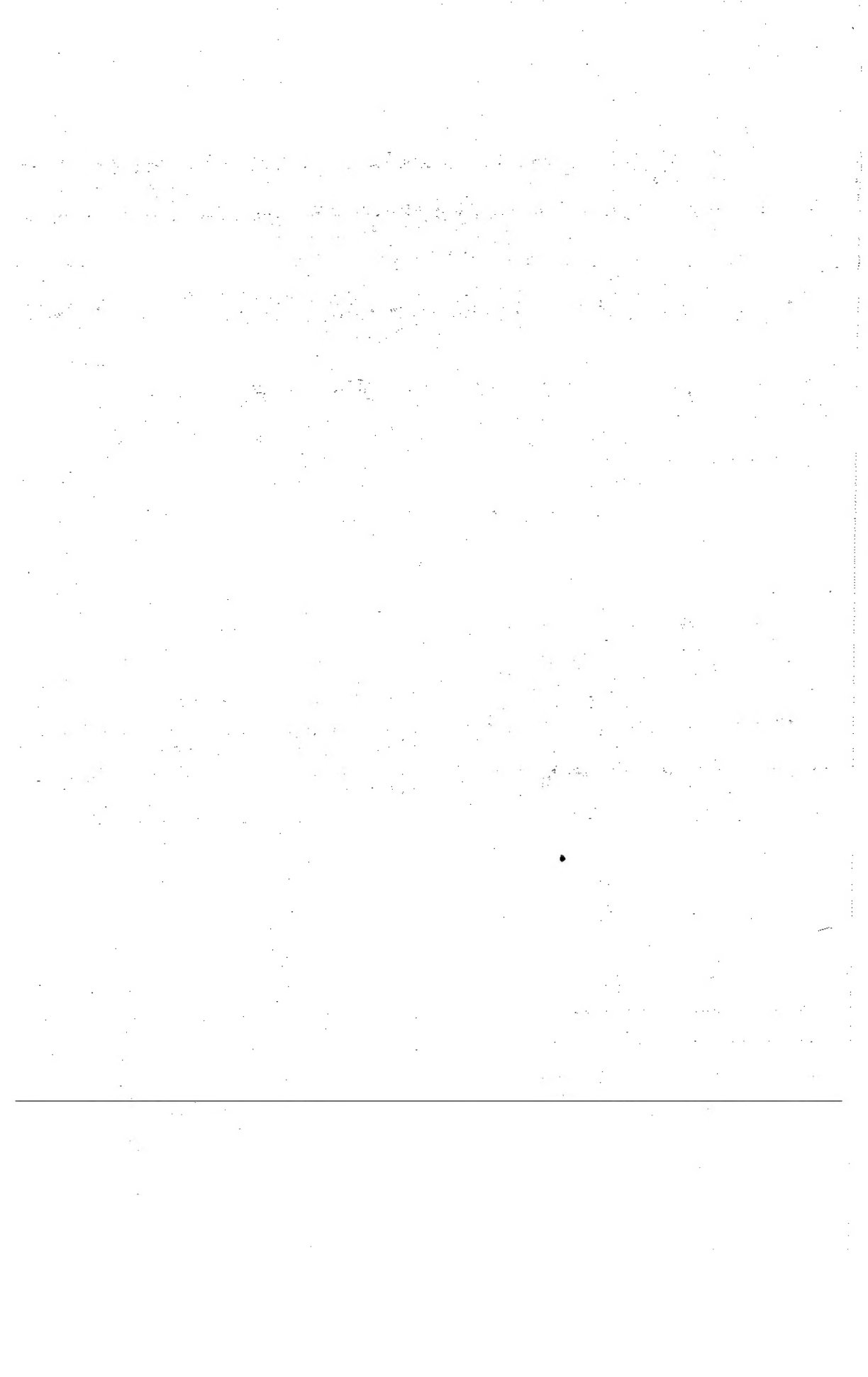
بُعَيْدُ الْوَعَاةِ
فِي طَبَقَاتِ اللَّغَوِيَّينِ وَالنَّحَاةِ
لِلْحَافِظِ حَبَلَالِ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّيُوطِيِّ

تَحْقِيقُ
مُحَمَّدِ ابْنِ الْفَضْلِ بَرَأْسِيمٍ

الطبعة الثانية

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

دار الفكر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

عنى العربُ بتدوين تاريخهم عنايةً قلَّ أن تُساوِيهم فيها أمة من الأمم أو تُدانيها ؛ وافتنوا في ذلك افتتناناً يدعو إلى العجب والإعجاب ؛ فمن ذلك ما ألقوه في تاريخهم السياسى من الكتب والأسفار الطوال ؛ مرتباً على السنين ، أو مقسماً بحسب الدول والإمارات ؛ وضمنوه أخبار ملوكهم وخلفائهم وأمرائهم وحروبهم وأيامهم ، ومظاهر مدنيّتهم وحضارتهم ، وصنوف علومهم ومعارفهم وألوان ثقافتهم ؛ مع ذكر مجتمعاتهم وأسواقهم وأجلاب تجارتهم ؛ ولم يخلّوه من الاستطراد إلى رواية أشعارهم وآدابهم ، والاسترواح بالحديث عن محاوراتهم ومطاليبتهم وأفاكيهم ؛ كما نرى ذلك فيما كتبه الواقدى واليعقوبى والطبرى والسعودى وابن مسكويه وابن الأثير وابن كثير وابن خلدون والمقريزى وغيرهم . ومنه ما وضعوه في تراجم الرواة ، ورواة الحديث على الخصوص ؛ فجمعوا أخبار الثقات ، وميزوا رُواة كتب الصحاح ، وأحصوا الضعفاء والمتروكين والوضّاعين والمدلسين ؛ ليمتاز الحسن والصحيح عن الضعيف والموضوع ؛ كما فعل البخارى والنسائى والدارقطنى وابن أبى حاتم والمزنى والذهبيّ وابن حجر ؛ وكتبهم في ذلك سائرة مشهورة . أو ما صنّفوه في تاريخ البلدان وتراجم من نشأ فيها ، أو رحل إليها من العلماء ؛ وخاصة البلاد التى زخرت بالمدارس والمعاهد ، وعمرت مجالسها بصنوف المعارف والآداب ؛ كبغداد والكوفة والبصرة ودمشق ومكة والمدينة وبلاد اليمن والرىّ ومرو وإربل وبلخ وقزوين والقاهرة وقوص والقيروان وبلاد الأندلس ؛ وكانت هذه الكتب مراجع أصيلة في تاريخ الآداب والفنون .

كما ألقوا في طبقات شتى من الناس ، كالفقهاء والحكماء والأطباء والأعيان والشعراء

والعميان والعمور ؛ حتى الحقى والفلكيين والمزورين ؛ كان لهم في تاريخ العرب نصيب .
 وكان علماء اللغة والنحو من هؤلاء الذين عُني بهم فريق من المصنفين عناية خاصة ،
 فدوّنوا أخبارهم ، وأحصوا كتبهم وآثارهم ، وحددوا مواليدهم وأعمارهم ووفياتهم ،
 وتتبعوهم في رحلاتهم ، وبسطوا القول في مذاهبهم وآرائهم ، وتعرضوا لنقدهم في كثير
 من الأحيان ؛ إذ كان هؤلاء العلماء هم الذين جمعوا اللغة وحملوها ، ووضعوا الكتب
 والمعاجم فيها ؛ وكانوا أيضاً هم الذين استقرءوا كلام العرب ودرسوا مختلف الأساليب ،
 ثم وضعوا أصول النحو والصرف والرسم والنقط والشكل ؛ وكان لهم في ذلك المذاهب
 المختلفة والكتب الكثيرة المتنوعة ، ثم هم الذين رووا الأبيات السائرة ، والقصائد الرائعة ،
 وميزوا الجيد من الزائف ، والصحيح من المنحول ؛ وبفضلهم حُفِظَ على الأيام أسمى ما صدر
 عن القرائح ، وأفصح ما نضحت به أخيلة الشعراء .

وكان من أوائل من ألف من هذا الشأن محمد بن يزيد البرد وأحمد بن يحيى المعروف
 بشعلب ومحمد بن عبد الملك التاريخي وعبد الله بن جعفر بن درستويه ؛ ألفوا كتباً صغيرة أو ردها
 ياقوت في مقدمة معجم الأدباء ^(١) وقال بعد أن ذكر هذه الكتب : « ثم صنّف فيه أبو عبد الله
 محمد بن عمران المرزباني كتاباً حفيلاً على عادته في تصانيفه ؛ إلا أنه حشاه بما رَوَّه ، وملاه
 بما رَوَّه ، فينبغي أن يُسمّى مُسند النحويين ؛ وقد وقفت على هذا الكتاب ، وهو تسعة عشر
 مجلداً ، ونقلت فوائده إلى هذا الكتاب ؛ مع أنه قليل التراجم بالنسبة إلى كبر حجمه . ثم
 ألف فيه أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيراقي القاضي كتاباً صغيراً عن نحاة
 البصرة » ^(٢) .

وفي القرن الرابع ظهر كتابان جليلان في هذا الشأن ؛ هما كتاب طبقات النحويين
 واللغويين لأبي بكر محمد بن الحسن الإشبيلي ؛ أحد أعيان الأندلس وفضلائها ، وكتاب
 مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي من علماء بغداد ثم حلب ؛ وهما وإن كانا متفقين
 في الموضوع والغاية إلا أنهما يختلفان شريعة ومنهجاً ؛ فكتاب الزبيدي بناء على الطبقات

(١) مقدمة معجم الأدباء ١ : ٤٧ . (٢) كتاب السيراقي طبع في بيروت سنة ١٩٣٦ .

والمدارس ، وعُنى فيه بذكر المواليد والوفيات ، وملأه بمختلف الأخبار والطُرُق والحكايات ؛ عن النحويين واللغويين ، من صدر الإسلام ، ثم من تلامه إلى شيخه أبي عبدالله الرياحي الأندلسي المتوفى سنة ٣٥٨ . وكتاب أبي الطيب أداره على ذكر مراتب العلماء ومنازلهم من العلم وحظهم في الرواية . وعقد الصلة بين الشيوخ والتلاميذ منذ ظهور اللحن ووضع النحو ثم ظهور مدرستي الكوفة والبصرة إلى أن انتهى العلم منهما ثم انتقل إلى بغداد . وقد شاع أمر هذين الكتابين بين العلماء ؛ ونقلَ عنهما مَنْ جاء بعدهما ممن كتبوا في هذا الشأن^(١) .

قال ياقوت : « ثم ألّف فيه القاضي أبو المحاسن الفضل بن محمد بن مسعر المغربي كتاباً لطيفاً ثم على بن فضال المجاشعي كتاباً وسمّاه « شجرة الذهب في أخبار أهل الأدب » ، وقع إلى شيء منه ، فوجدته كثير التراجم ؛ قليل الفائدة ، لكونه لا يعنى بالأخبار ، ولا يعبأ بالوفيات والأعمار » .

وذكر القفطي في ترجمة محمد بن الحسين البني المتوفى سنة ٤٠٠ ، أنه ألّف كتاباً في أخبار النحويين ؛ ونقل عنه في مواضع كثيرة من كتابه .

ثم وضع أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري المعروف بالكمال ، كتاباً قال في حقه : « ذكرت في هذا الكتاب الموسوم بنزهة الألباء في طبقات الأدباء معارف أهل هذه الصناعة من الأعيان ، ومن قاربهم في الفضل والإنقان ، وبينت أحوالهم وأزمانهم على غاية الكشف والبيان » ؛ من عهد أبي الأسود الدؤلي إلى شيخه أبي السعادات هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة المعروف بابن الشجري ، المتوفى سنة ٥٤٢^(٢) .

وفي القرن السابع قام الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي بتأليف كتابه المعروف « إنباه الرواة على أنباء النحاة » ، ذكر فيه : « مشايخ علمي النحو

(١) طبع كتاب طبقات الزبيدي بمطبعة السعادة سنة ١٩٥٤م ، وكتاب مراتب النحويين بمطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٥ ، وكلاهما بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . (٢) طبع كتاب نزهة الألباء طبع حجر بمصر سنة ١٢٩٤هـ ، وأخرى بالعراق سنة ١٩٥٩م

واللغة ؛ ممن تصدر لإفادتهما تصنيفاً وتدریساً ورواية ، في أرض الحجاز واليمن والبحرين
وعُمان واليمامة والمِراق وأرض فارس والجبال وخراسان وكرْمسیر وغَزَنَة وما وراء النهر
وأذربيجان والمَذَار وأرمينية والموصل وديار بَكْر وديار مُضَر والجزيرة والعواصم والشَّام
والسَّاحل ومصر وعَمَلها وإفريقية ووسط المغرب وأقصاء وجزيرة الأندلس وجزيرة
صِقْلِيَّة » ، ورتبه على حروف المعجم بعد أن صدره بترجمة علي بن أبي طالب ثم أبي الأسود
الدَّوْلِي^(١) .

وفي القرن الثامن وضع عبد الباقي بن علي بن عبد المجيد القرشي البياضي ، كتاباً صغيراً
أسماء إشارة التعمين^(٢) قصره على المشهورين منهم ، على ترتيب حروف المعجم ؛ ذكر أنه
فرغ من تأليفه سنة ٧٧٣ ؛ كما قام أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي المعروف بابن
قاضى شُهبة والمتوفى سنة ٨٥١ كتاباً آخر أسماء طبقات النحويين واللغويين^(٣) ؛ أودع
فيه أسماءهم مرتبة على حروف المعجم أيضاً .

ثم جاء بعد هؤلاء جميعاً عالمنا الجليل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، فوضع كتابه
العتيد « بُنية الوعاء في طبقات اللغويين والنحاة » ؛ أودعه صفة جميع الكتب التي
سبقته في هذا الشأن ، وزاد عليها ما انتقاء من كتب الأدب والتاريخ والتراجم ومعاجم
الشيوخ والتذكريات ومقدمات الكتب عدا مشاهداته وأخبار شيوخه وعلماء عصره ؛
قال في وصفه : « بُنيت فيه للنحاة طبقات قواعد على ممر الزمان لا تبي ، وأحييت فيه
ميتهم فلم أغادر شهيراً ولا خاملاً إلا نظمته في سلك عقده البهي ، فلو رآه البهقي لخلع
وشاحه بين يديه توقراً ، أو ابن الأبار لخلع عليه حلته السيرا ، أو ابن بسام لأضحى عابساً
لنفاد ذخيرته ، أو ياقوت الحموي لقال : هذه الدرّة اليتيمة التي لم يقع عليها الأصهباني حين
أتى بخريدته ، على أني لا أبيع ببيع سلامة ، ولا أدعي أنه لم يفتني فاضل أو علامة .

(١) طبع من كتاب لإنهاء الرواة ثلاثة أجزاء بمطبعة دار الكتب المصرية ، بتحقيق محمد أبو الفضل
إبراهيم ؛ والجزء الرابع والأخير تحت الطبع . (٢) من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب
المصرية رقم ١٦١٢ - تاريخ . (٣) منه نسخة مخطوطة بالمشيخة الظاهرية بدمشق .

أُنِّي لي ، ونجباء الدنيا لا تحصى ، وأخبارهم شتى ولا تستقصى ، خصوصاً علماء العجم
المتأخرين فإنهم ضيعوا أنفسهم بترك تاريخ يجمع شملهم . وقد اعتنى بذلك المتقدمون من
علماء محدثيهم ، فاستعننا بما وقفنا عليه من تواريخهم ، كتاريخ بغداد للخطيب البغدادي
والذيل عليه للحافظ تقي الدين بن رافع ، وتاريخي نيسابور للحاكم وعبد الغافر ، وتاريخ
جرجان للسهيدي ، وتاريخ أصبهان لأبي نُعيم . وأما المغرب فأهله أصحاب اعتناء شديد
بذلك ، والنحاة جَمٌّ غفير ، وأكثر ما وقفنا عليه من تواريخهم تواريخ الأندلس ، كتاريخ
ابن القزويني وابن بشكوال وابن الزبير وابن عبد الملك والريحانة لابن عاتٍ وتاريخ
غرناطة لابن الخطيب ، وأما غيرها من بقية بلاد المغرب فلم نقف على تواريخه ، إلا المغرب
في تاريخ بلاد المغرب عامة لابن سعيد . وأما الحجاز فوقفنا من تواريخه على تاريخ مكة
للتقي الفاسي - وهو متأخر لم يستوعب - وتاريخ اليمن للجندی والحزرجي وهو حافل .
وأما الشام فوقفنا على تاريخها لابن عساكر وأعظم به ، وتاريخ حلب لابن العديم ،
وأما مصر فلم نقف على تواريخها إلا تاريخ ابن يونس ، وهو مجلد لطيف .
هذه التواريخ المذكورة قد استوعبناها كلها ، ولم ندع فيها أحداً ممن تحققنا أنه نحوي
إلا ذكرناه ؛ مع ما وقفنا عليه من التواريخ التي لا تختص ببلد ؛ كتاريخ الإسلام للذهبي
وطبقات القراء له والدرر لشيخ الإسلام ابن حجر في أعيان المائة الثامنة وإنباء الغمر
بأبناء العمر له ، وتاريخ الصلاح الصفدي ، والمسالك لابن فضل الله العمري ، وذيل
طبقات القراء للعفيف المطري ، وطبقات النحاة للسيراقي وللمفضل الضبي ولأبي بكر
الزبيدي ، وطبقات أئمة اللغة للشيخ مجد الدين الشيرازي ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ،
والنصار لأبي حيان ؛ إلى غير ذلك من المعاجم والتعاليق التي لا تحصى .
وأصل هذا الكتاب على ما بينه السيوطي مجموعة كبيرة أودع فيها جميع ما في كتب
الأدب والتاريخ « من ترجمة نحوي طالت أو قصرت ، خفيت أخباره أو اشتهرت » ،
أورد فيه من « فوائدهم وأخبارهم ومناظراتهم وأشعارهم ومروياتهم ومفرداتهم ما لم يجتمع
في كتاب ، بحيث بلغت المسودة سبع مجلدات » .

قال : « فلما حلت بمكة المشرقة سنة تسع وستين ، وقفتُ عليها صديقنا الحافظ نجم الدين بن فهد . . . فأشار عليّ أن ألخص منها طبقات في مجلد ؛ يحتوى على المهم من التراجم ، ويجرى مجرى ما ألفه الناس من المعاجم ، فحمدت رأيه ، وشكرت لذلك سعيه ، ولخصت منها الباب في هذا الكتاب » .

وقد رتب تراجمه على حروف المعجم ، وابتدأها بالمحمدين ثم بالأحدين تبركا ، وجعل في آخرها بابا في الكنى والألقاب والتسبب والإضافات مرتبا على الحروف ، وآخر في المؤلف ؛ وهو المتفق خطأ المختلف لفظا ، وثالثا في الآباء والأبناء والأحفاد والأخوة والأقارب ، ورابعا في أحاديث منتقاة من الطبقات الكبرى له . وذكر في آخره أنه فرغ من تأليفه في شهر شعبان سنة إحدى وسبعين وثمانمائة .

وقد امتاز كتاب بنية الوعاة عن بقية الكتب التي سبقتها بأنه يعد أشمل كتاب ألف في هذا الفن ؛ أتى فيه على ما في الكتب السابقة وأضاف إليها ما فاتها من تراجم ، وما وقع له من أخبار شيوخه ومعاصريه ؛ كما أنه نقل عن كتب أصبحت مفقودة وأخرى ما زالت في دور الكتب مخطوطة ؛ وصوب نصوص كثير من الكتب المطبوعة التي رجع إليها ، وأكمل نواحي النقص فيها ؛ وكشف الغموض عما أبهم منها ؛ فهو بهذا الاستيعاب الشامل ، وذلك الترتيب الدقيق الكامل ، وما ألحق به من أبواب تدنى أقاليمه ، وتقرب نواحيه ؛ يستأهل أن يكون غنية المتأدين ، ومرجع الباحثين ، وعمدة الدارسين .

هذا ، وقد رجعت في تحقيق هذا الكتاب إلى النسخ الآتية :

١ - نسخة مصورة عن نسخة كتبت بخط أحمد بن الخطاب بن عمر المنشاوي سنة ٩٧٩ ، بخط معتاد ، مقابلة على نسخة أخرى ، وأثبتت المقابلة في حواشيها ؛ وعليها بعض التملكات ؛ تملكها محمد بدر الدين القرافي المالكي سنة ٩٧٩ ، ثم محمد القرئي الحنفى سنة ١٠٤٤ ، ثم زين الدين البصراوي سنة ١٠٧٥ . وهي محفوظة

بدار الكتب المصرية برقم ١٥٦٧ - تاريخ ، وتقع في مائتي ورقة وثلاث ورقات ،
في كل صفحة ثلاثة وثلاثون سطرا ؛ وفي كل سطر خمس عشرة كلمة تقريبا ؛ وهي نسخة
جيدة ؛ وأخطاؤها يسيرة ؛ مع خلوها من الضبط ؛ وقد اتخذتها أصلا لقرب عهد كتابتها
بمهد المؤلف من ناحية ؛ وباعتبارها نسخة كاملة مقابلة من ناحية ثانية ؛ وقد رمزت لها
بلفظ « الأصل » .

٢ - قطعة مصورة عن نسخة مكتوبة بخطوط مختلفة، محفوظة بالمكتبة التيمورية برقم
٥٢٤-تاريخ؛ تبدأ من أثناء الكلام على محمد بن أحمد بن الفخار الجذامى الأركشى ص ١٩٧
وتنتهى فى أثناء الكلام على على بن الهيثم الكاتب الأنبارى ص ٥١٨ . وهى مكتوبة بخط
جيد صحيح^(١) ؛ وقد ضبط فيها كثير من نصوص الشعر والأعلام وأسماء البلاد ضبطا صحيحا ،
وفى كل صفحة من صفحاتها سبعة وعشرون سطرا ؛ فى كل سطر خمس عشرة كلمة تقريبا
وقد رمزت إليها بالحرف (ت) .

٣ - نسخة طبعت بمطبعة السعادة سنة ١٣٣٦ تقع فى ٤٦١ صفحة ؛ يشيع فيها الخطأ
والتحريف . وقد رمزت إليها بالحرف (ط) .

كما أنى رجعت إلى ما تيسر لى من الكتب التى نقل السيوطى عنها ، كمعجم الأدباء وإنباء
الرواة وطبقات الزيدى ومراتب النحويين والسيرافى وابن الفرضى وابن بشكوال
والإحاطة والغرب والطالع السعيد ، وما طبع من الوافى بالوفيات وابن خلكان وغيرها ؛
وأثبت المهم من فروق النسخ والمراجع فى الحواشى ؛ وكان حرصى على سلامة النص وضبط
الغريب وشرح المبهم أكثر من حرصى على التعريف بالأعلام والبلاد والإسراف فى الشرح
والتعليق ؛ إذ كان ذلك أهم ما يحتاج إليه العلماء والباحثون عند الرجوع إلى الكتب المحققة .

وجلال الدين السيوطى مؤلف هذا الكتاب أغنى الباحثين عن تاريخه وذكر شيوخه
ومؤلفاته ، فكتب لنفسه ترجمة عند الكلام على من كان بمصر من الأئمة المجتهدين من كتابه

(١) يرجع صديقنا الأستاذ فؤاد السيد أمين المخطوطات بدار الكتب أنها بخط السيوطى نفسه .

حسن المحاضرة ، قال : « . . . عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبي الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيرى الأسيوطى .

وإنما ذكرتُ ترجمتى فى هذا الكتاب اقتداءً بالمحدثين قبلى ؛ فقلّ أن أَلَفَ أحدُ منهم تاريخاً إلا ذكر ترجمته فيه ؛ ومثمن وقع له ذلك الإمام عبد الغافر الفارسى فى تاريخ نيسابور وياقوت الحموى فى مُعْجَم الأدياء ، ولسان الدين بن الخطيب فى تاريخ غرناطة والحافظ تقيّ الدين القامسى فى تاريخ مَكَّة والحافظ أبو الفضل بن حَجَر فى قضاة مصر ، وأبو شامة فى الرُّوضَتَيْن - وهو أورعهم وأزهدهم - فأقول :

أما جدّى الأعلى همام الدين ؛ فكان من أهل الحقيقة ومن مشايخ الطرق - وسيأتى ذكره فى قسم الصّوفيّة - ومَنْ دونه كانوا من أهل الوجاهة والرّئاسة ، منهم من ولى الحُكْم ببلده ، ومنهم من ولى الحِسبة بها ، ومنهم من كان تاجراً فى صحبة الأمير شيخون وبني بأسيوط مدرسة ووقف عليها أوقافاً ، ومنهم من كان متمولاً ؛ ولا أعلم منهم من خَدَم العِلْم حقّ الخدمة إلا والدى - وسيأتى ذكره فى قسم فقهاء الشافعية - وأما نسبتنا بالخضيرى فلا أعلم ما تكون هذه النسبة إلا الخضرية ، محلّة ببغداد . وقد حدثنى مَنْ أثنى به أنّه سمع والدى رحمه الله يذكر أن جَدّه الأعلى كان أعجميّاً ، أو من الشرق ؛ فالظاهر أن النسبة إلى المحلّة المذكورة .

وكان مولدى بعد المغرب ليلة الأحد مستهلّ رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، وُحِلّت فى حياة أبى إلى الشيخ محمد المجدوب ؛ رجل كان من الأولياء بجوار المشهد النفيسى ، فبرك على . ونشأتُ يتيمًا حفظت القرآن ولى دون ثمان سنين . ثم حفظت العمدة ومنهاج الفقه والأصول وألفيّة ابن مالك ، وشرعتُ فى الاشتغال بالعلم من مستهلّ سنة أربع وستين ، فأخذت الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ ، وأخذت الفرائض عن العلامة قرصى زمانه الشيخ شهاب الدين الشارمساحى ؛ الذى كان يقال : إنه بلغ السنّ العالية ، وجاوز المائة بكثير - والله أعلم بذلك - قرأتُ عليه فى شرحه على المجموع .

وأجزت بتدريس العربية في مستهل سنة ست وستين ، وقد ألفت في هذه السنة ، فكان أول شيء ألفتُه شرح الاستعاذة والبسملة ، وأوقفتُ عليه شيخنا شيخ الإسلام علم الدين البلقيني ، فكتب عليه تقريراً ؛ ولازمته في الفقه إلى أن مات ، فلازمت ولده ؛ فقرأت عليه من أول التدريب لوالده إلى الوكالة ، وسمعتُ عليه من أول الحاوي الصغير إلى العدد ، ومن أول المنهاج إلى الزكاة ، ومن أول التنبيه إلى قريب من الزكاة ، وقطعة من الروضة ، وقطعة من تكملة شرح المنهاج للزركشي ومن إحياء الموات إلى الوصايا أو نحوها .

وأجازني بالتدريس والإفتاء من سنة ست وسبعين ، وحضر تصديري ؛ فلما توفيتُ سنة ثمان وسبعين ، لزم شيخ الإسلام شرف الدين المناوي ، فقرأتُ عليه قطعة من المنهاج ، وسممته عليه في التقسيم إلا مجالس فائتني ، وسمعتُ دروساً من شرح البهجة ومن حاشيته عليها ومن تفسير البيضاوي .

ولزم في الحديث والعربية شيخنا الإمام العلامة تقي الدين الشبلي الحنفي ، فواظبته أربع سنين ، وكتب لي تقريراً على شرح ألفية ابن مالك وعلى جمع الجوامع في العربية تأليف ، وشهد لي غير مرة بالتقدم في العلوم بلسانه وبنانه ، ورجع إلى قولي مجرداً في حديث ؛ فإنه أورد في حاشيته على الشفاء حديث أبي الجراف في الإسراء ، وعزاه إلى تخرج ابن ماجه ، فاحتجت إلى إirاده بسنده ، فكشفت ابن ماجه في مظنته فلم أجده ، فررتُ على الكتاب كله فلم أجده ، فاتهمت نظري ، فررت مرة ثانية فلم أجده ، فعدت ثالثة فلم أجده ، ورأيت في معجم الصحابة لابن قانع ، فبحثت إلى الشيخ فأخبرته ؛ فبمجرد ما سمع مني ذلك أخذ نسخته وأخذ القلم فضرب على لفظ « ابن ماجه » ، وكتب « ابن قانع » وألحق « ابن قانع » ، في الحاشية ؛ فأعظمت ذلك وهبته لعظم منزلة الشيخ في قلبي واحتقاري في نفسي ، فقلت : ألا تصبرون لعلمكم تراجمون ! فقال : إنما قلدت في قولي « ابن ماجه » البرهان الحلي . ولم أتفك عن الشيخ إلى أن مات .

ولزمت شيخنا العلامة أستاذ الوجود محي الدين الكافيجي أربع عشرة سنة ، فأخذت عنه الفنون من التفسير والأصول والعربية والمعاني وغير ذلك . وكتب لي إجازة عظيمة . وحضرت عند الشيخ سيف الدين الحنفي دروساً عديدة في الكشف والتوضيح وحاشيته عليه وتلخيص المفتاح والعصّد .

وشرعت في التصنيف في سنة ست وستين ، وبلغت مؤلفاتي إلى الآن ثلثمائة كتاب ، سوى ما غسلته ورجعت عنه . وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور .

ولما حججت شربت من ماء زمزم لأمر ، منها أن أصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني ، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر . وأفتيت من مستهل سنة إحدى وسبعين ، وعقدت إمامة الحديث من مستهل سنة اثنتين وسبعين .

ورزقت التبهر في سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع على طريقة العرب والبلغاء ؛ لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة .

والذي أعتقد أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه والنقول التي اطلعت عليها ، لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أسياسي فضلاً عن هو دونهم ؛ أما الفقه فلا أقول ذلك فيه ؛ بل شيخى فيه أوسع نظراً ، وأطول باعاً .

ودون هذه السبعة في المعرفة أصول الفقه والجدل والتصريف ، ودونها الإنشاء والترسل والفرائض ، ودونها القراءات - ولم آخذها عن شيخ - ودونها الطب . وأما علم الحساب فهو أعسر شيء على وأبعده عن ذهني ، وإذا نظرت إلى مسألة تتعلق به ، فكأنما أحول جيلاً أحمله .

وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى ، أقول ذلك تحمداً بنعمة الله عليّ ، لا نخراً ، وأيّ شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيله بالفخر ! وقد أرف الرحيل ، وبدا الشيب ، وذهب أطيب العمر ، ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها

النقلية والقياسية ومداركها وتقوضها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله لا بحول ولا بقوة ؛ فلاحول ولا قوة إلا بالله ، ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله .

وقد كنت في مبادئ الطلب قرأت شيئاً في النطق ؛ ثم ألقى الله كراهته في قلبي . وسمعت ابن الصلاح أفنى بتحريمه فتركته لذلك ، فمؤضى الله تعالى عنه علم الحديث الذي هو أشرف العلوم .

وأما مشايخي في الرواية سماعاً وإجازة فكثير ، أوردتهم في المعجم الذي جمعهم فيه وعدتهم نحو مائة وخمسين . ولم أكثر من سماع الرواية لاشتغالي بما هو أهم ؛ وهو قراءة الدراية^(١) .

وقد ظل السيوطي طوال حياته مشغولاً بالدرس ؛ مشغولاً بالعلم ؛ يتلقاه عن شيوخه ، أو يبذله لتلاميذه ، أو يذيعه فتياً ، أو يحرره في الكتب والأسفار ؛ وحينما تقدم به العمر ؛ وأحسن من نفسه الضعف ، خلا بنفسه في منزله بروضة المقياس واعتزل الناس ، وتجرد للعبادة والتصنيف ؛ وألف كتابه : « التنقيس في الاعتذار عن الفتيا والتدريس » .

وكان رحمه الله في حياته الخاصة على أحسن ما يكون عليه العلماء ورجال الفضل والدين ؛ عفيفاً كريماً ؛ غنى النفس ، متباعداً عن ذوى الجاه والسلطان ؛ لا يقف بباب أمير أو وزير ؛ قائماً برزقه من خاتناه شيخو ؛ لا يطمع فيما سواه . وكان الأمراء والوزراء يأتون لزيارته ويعرضون عليه أعطياتهم فيردّها ؛ وروى أن السلطان النورى أرسل إليه مرةً خصياً وألف دينار ؛ فردّ الدنانير ؛ وأخذ الخصى ثم أعتقه ، وجعله خادماً في الحجرة النبوية ؛ وقال لرسول السلطان : لا تمد تأتينا قطّ بهدية ؛ فإن الله أغنانا عن ذلك .

وأما كتبه فقد أحصى السيوطي منها في كتابه نحواً من ثلاثمائة في التفسير وتعلقاته والقراءات ، والحديث وتعلقاته ، والفقه وتعلقاته ، وفن المربية وتعلقاته ، وفن الأصول

(١) حسن المحاضرة ١ : ١٤٢ - ١٤٤ .

والبيان والتصوف ، وفن التاريخ والأدب ، والأجزاء المفردة ؛ ما بين كبير في مجلد أو مجلدات ، وصغير في كراريس أو أوراق ؛ وذكر تلميذه الداودي المالكي أنها أنافت على خمسمائة مؤلف ، وقال ابن ياس في تاريخه (حوادث سنة ٩١١) : إنها بلغت ستمائة مؤلف .

وتقع هذه الكتب في مجلد أو مجلدات ؛ كالزهر والإتقان والأشباه والنظائر وبغية الوعاة والدر المنثور في التفسير بالماثور والجامع الصغير والجامع الكبير وأمثالها ؛ أو في أوراق أو صفحات ؛ كهذه الرسائل التي طبعت باسم الحاوي في الفتاوى ؛ في مجلد يحوى ثمانية وسبعين كتابا في معظم الفنون وقد تدارس العلماء هذه الكتب في كل مكان ؛ وانتشرت في حياة السيوطي وبعده ، وعمرت بها المدارس والمعاهد ودور الكتب ، وكانه المستفتون من شتى الجهات ؛ مما أثار عليه فريقا من أقرانه ومعاصريه من العلماء ؛ تحاملوا عليه ورموه بما هو منه براء ؛ وكان من أشد الناس خصومة عليه ؛ وأكثرهم تجريحا وتشهيرا ، المؤرخ شمس الدين السخاوي ؛ صاحب كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ؛ فقد ترجم له في هذا الكتاب ؛ ونال من علمه وخلقه ، مما يقع مثله بين النظراء والأنداد ، وقد انتصر السيوطي لنفسه في مقامة أسماها « الكاوي على تاريخ السخاوي » ؛ كما انتصر له فريق من تلاميذه وفريق من العلماء ممن جاء بعده ؛ منهم الشوكاني صاحب البدر الطالع ؛ قال في ترجمته للسيوطي بعد أن لخص مطاعن السخاوي فيه ؛ ورد هذه المطاعن عنه : « وعلى كل حال فهو غير مقبول عليه لما عرفت من قول أئمة الجرح والتعديل بعدم قبول قول الأقران بعضهم في بعض ؛ مع ظهور أدنى منافسة ؛ فكيف يمثل المنافسة بين هذين الرجلين التي أفضت إلى تأليف بعضهم في بعض ! فإن أقل من هذا يوجب عدم القبول ؛ والسخاوي رحمه الله وإن كان إماما غير مدفوع ؛ لكنه كثير التحامل على أكبر أقرانه » (١) .

(١) البدر الطالع ١ : ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

وكانت وفاة السيوطي - على ما ذكره ابن إياس - في يوم الخميس تاسع شهرى جمادى
الأولى سنة ٩١١ ، ودفن بجوار خاتناه قوصون خارج باب القرافة ، بعد أن ملأ الدنيا علما
وفضلا ، وشهرة وذكرا .

محمد أبو الفضل إبراهيم

١٩ شعبان سنة ١٣٨٤ هـ
مصر الجديدة : ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٦٤ م